رحلة حجِ منسا موسى ... قراءةٌ جديدةٌ في ضوءِ تأويلاتِ الشكري

حسين سيد عبد الله مراد[1]

تعلمنا في بداية اهتمامنا بالدراسات التاريخية أن تلك الدراسات تهدف إلى الوصول ـ بقدر الإمكان ـ إلى الحقيقة التاريخية ، من خلال تطبيق قواعد منهج البحث التاريخي ، تلك القواعد التي رسخت في أذهان المؤرخين والباحثين منذ بدايات القرن العشرين. وإذا كان التاريخ يعني بدراسة دور الأفراد والشعوب في صنع حوادثه التي وقعت في الماضي ، فعلى المؤرخ أن يستعين بوثائق الماضي لرسم صورة أقرب إلى الحقيقة ، لا يتدخل فيها هوى النفس والأحكام المسبقة للمؤرخ.

لذلك يجب على المؤرخ أن يحرر نفسه بقدر المستطاع من الميل أو الإعجاب أو الكراهية لعصر خاص أو شعب ما أو لحاكم أو لناحية تاريخية معينة ، فهو بمثابة القاضي الذي لابد أن يكون حكمة أقرب إلى العدل ، وحتى يكون عادلًا لابد أن يبعد عن التحيز والهوى.وكيف ننتظر من المؤرخ الذي بلغ إعجابه أو كراهيته لعصر ما حد التحيز أن يكتب تاريخًا علميًا وهو قد بعد عن الحقيقة التاريخية[2].

هذه المقدمة لا تخفي عن معظم الباحثين في علم التاريخ. لكنها مقدمة ضرورية دفعني إلى البدء بها الهدف من وراء كتابة هذا البحث بعنوان «**رحلة حج منسا**

---

(١) أستاذ التاريخ الإسلامي بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية ـ جامعة القاهرة

(٢) حسن عثمان : منهج البحث التاريخي ، القاهرة ـ دار المعارف ، ط ٤، ١٩٨٠، ١٩ـ ٢٠.

موسى ... قراءة جديدة في ضوء تأويلات الشكرى»[١]، الذي تناول رحلة حج منسا موسى (٧٠٧-٧٣٨هـ/١٣٠٧-١٣٣٧م) في كتابه المعنون «**الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي (١٢٣٠-١٤٣٠م)**»[٢]. لقد تناول أحمد الشكري رحلة منسا موسى بعد أن كون فكرة مسبقة لما ينبغي أن يكتبه؛ لذلك قام بتأويلات عديدة للنص التاريخي، وقدم استنتاجات تاريخية -من وجهة نظره- لا تستند إلى مصدر بل هي من نسج خيال الشكري، فعلى سبيل المثال مصطلح الكسب والمكاسب التي استخدمها العمري[٣] في وصف العمليات التجارية بين التجار المصريين وحجاج السودان الغربي الذين قدموا مع منسا موسى استخدم الشكري بدلًا من هذا المصطلح مصطلح الغش. كما إن العطايا التي منحها منسا موسى لأمراء المماليك برضاه اعتبرها رشوة[٤]. بل وصل به الأمر إلى الحديث عن مؤامرة دبرها البلاط المملوكي ضد منسا موسى في أثناء عودته من الحج متجهًا إلى القاهرة، استند في هذا الأمر على أوهام وتأويلات غير صحيحة وليؤكد هذا الزعم كان لابد من رد فعل من منسا موسى فكان رد الفعل الذي تخيله أن يقوم منسا موسى بقتل التجار الذين استدان منهم قبل عودته إلى بلاده[٥] وهو لم يحدث.

---

(١) الدكتور أحمد الشكري هو أستاذ قدير وباحث مغربي شقيق، يعمل في معهد الدراسات الأفريقية بالرباط، جامعة محمد الخامس، وله اهتمامات كبيرة بدراسة تاريخ الإسلام في بلاد السودان الغربي.

(٢) أحمد شكرى: «الإسلام والمجتمع السوداني» إمبراطورية مالي ١٢٣٠-١٤٣٠م، أبو ظبي - الإمارات، المجمع الثقافي، ١٩٩٩.

(٣) العمرى (أبو العباس أحمد بن يحيى، المتوفى ٧٤٩هـ/١٣٤٨م): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وآخرين، الإمارات - مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠١٠، ٤-٧٢.

(٤) الشكري: الإسلام والمجتمع السوداني ٢٤٧.

(٥) المرجع السابق ٢٥٨.

كان لانتشار الإسلام في بعض ممالك السودان الغربي[١] بصفة رسمية بداية من أوائل القرن الخامس الهجري واستمرار انتشاره في بقية الممالك طوال هذا القرن[٢] أثره البالغ في دفع مسلمي تلك البلاد لأداء فريضة الحج التي فرضها الله عز وجل على كل مسلم قادر. كانت رحلات الحج القادمة من تلك الممالك تمر بمصر في طريقها إلى بلاد الحرمين، وتخرج مع ركب الحج المصري الذي كان يوفر لهم الحماية والأمن، وبعد أداء فرضهم يمرون أيضًا بمصر صحبة ركب الحج المصري وبعد استراحة من عناء الطريق يتأهبون للعودة إلى بلادهم.

وفرت مصر خاصة في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م) الحماية والرعاية للحجيج القادمين إليها، كما نهضت بمرفق الحج وقدمت خدماتها لرحلات الحج التي كانت تخرج منها أصلًا أو التي تمر عبر أرضيها؛ لأنها كانت المعبر الوحيد والمنفذ الوحيد أيضًا لرحلات الحج القادمة من بلاد المغرب والأندلس وبلاد السودان الغربي وذلك بحكم موقعها الجغرافي المهم الذي جعلها البوابة الرئيسية للقادمين من شمال القارة الأفريقية وغربها إلى بلاد الحجاز. كما أن مصر في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الإسلام والمسلمين تسلمت مقعد الزعامة السياسية والحضارية في العالم الإسلامي بعد أن نجحت في

---

(١) السودان الغربي مصطلح أطلقه الجغرافيون العرب على المنطقة التي تقع جنوب الصحراء الكبرى والممتدة بين المحيط الأطلنطي غربًا وبحيرة كوري (بحيرة تشاد) إلى المحيط الأطلنطي شمال خط الاستواء، وجنوب الصحراء الكبرى بين خطي عرض ١١ و١٧° شمالًا. وتمثل هذه المنطقة المجال الموازي لبلاد المغرب وتفصل بينهما الصحراء الكبرى، انظر: ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسي، المتوفى ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م): كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت ـ المكتب التجاري للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٧٠، ١٠؛ حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، القاهرة ـ دار الفكر العربي، ١٩٩٨، ؛ حسين مراد: الصلات بين المغرب والسودان الغربي (خلال القرن ٢-٦هـ/٨-١٢م) المؤتمر الدولي الإسلام في أفريقيا، الخرطوم نوفمبر ٢٠٠٦، الكتاب الحادي عشر، ٢٠٠٦، ٣٧٣.

(٢) عن انتشار الإسلام في ممالك السودان الغربي، انظر حسين مراد: المرجع السابق ٣٧٣-٤٢٣.

التصدي للصليبيين والمغول الذين سعوا للقضاء على العالم الإسلامي وتراثه الحضاري. كما نجحت مصر أيضًا في إحياء الخلافة العباسية في القاهرة. وبذلك حملت مصر لواء الزعامة السياسية والحضارية والروحية في العالم الإسلامي بأسره، وأصبحت الحجاز داخلة، وأصبحت الحجاز داخلة ضمن نفوذها السياسي في تلك الفترة[١].

لم تكن رحلة خج منسا موسى بداية رحلات حج مملكة مالي الإسلامية، فقد سبقت رحلته ثلاث رحلات حجية أولها رحلة حج برمندانة الذي حج عام ٤٤٢هـ/١٠٥٠م[٢]. ثاني الرحلات الحجية كانت لمنسا ولي بن ماري جاطة الذي مر بمصر في طريقة للحج عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م في سلطنة الظاهر بيبرس[٣]. ويعرف ثالث حكام مالي الذي أدى فريضة الحج باسم ساكورة، وقد حج عام ٦٦٩هـ/١٣٠٠م في أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون في فترة حكمه الثانية[٤]، لكن ساكورة قتل على أيدي قبائل الدناقل التي كانت تنتشر على ساحل البحر الأحمر من الجنوب[٥].

---

(١) رجب محمد عبد الحليم: مصر ورحلات الحج إلى بلاد الحجاز في العصور الوسطى، بحث قدم لندوة: مصر والجزيرة العربية عبر العصور، كلية الآداب، جامعة القاهرة، من ٣-٥ أبريل ١٩٩٣، ١.

(٢) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد، المتوفى ت٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦م): العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٥: ٩٣١، بيروت - دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٨. يرى القلقشندي: أن برمندانة هو أول من أسلم من ملوك مالي، وأوول من حج منهم أيضًا، انظر: القلقشندى (ابو العباس احمد، المتوفى ٨٢١هـ/ ١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ٥: ٢٩٣، القاهرة - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر. أما المقريزى فقد ذكر أن برمندانة هو أول من أسلم من ملوكهم، انظر: المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي، المتوفى ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م): الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة - مكتبة الثقافة الدينية، ط١ ٢٠٠٠، ١٤٠.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ٥: ٢٩٣؛ المقريزي: التبر المسبوك ١٤٠.

(٤) ابن خلدون: العبر ٥: ٩٣١.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى ٥: ٢٩٤؛ المقريزي: التبر المسبوك ١٤١؛ إبراهيم طرخان: دولة=

ورغم أن هؤلاء الملوك الثلاثة كانوا قد أدوا فريضة الحج قبل منسا موسى ، إلا أنه من الملاحظ أن الإشارة إلى رحلة حج كل منهم في المصادر كانت مجملة. ويعد هذا دليلًا على أنه لم تكن في مواكبهم الحجية ما يستلفت النظر حتى تحظى باهتمام المؤرخين المعاصرين ، وذلك بخلاف رحلة حج منسا موسى التي اتسمت بالفخامة[١]. وغدت رحلته هي الأشهر بين من حج من سلاطين دولة مالي الإسلامية بوجه خاص وسلاطين السودان الغربي بوجه عام.

اعتمد محمود كعت المتوفى عام ١٠٠٢هـ/١٥٩٣م في ذكر سبب خروج منسا موسى للحج على إحدى الروايات الشفهية التي قصها له أحد حفاظ أخبار الأوائل والذي ذكر له : أن سبب خروجه أنه قتل أمه نانا كنك خطأ ، وندم وخاف عقوبة ذلك ، وسأل العلماء عما يفعل في الاستغفار لهذا الذنب العظيم ، فقيل له أن يتجه إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم ويتشفع فيه وسيشفعه الله فيك[٢]. والراجح أن منسا موسى سواء ارتكب هذا الأمر أم لا فإنه كملك مسلم اشتهر بالتقوى والورع سيعمل على قضاء فريضة الحج أسوة بمن سبقه من حكام دولته فحين سأله الناصر محمد بن قلاوون عن سبب مجيئه قال : أردت الحج[٣].

عقد منسا موسى العزم لأداء الفريضة ، وقام بجمع المال والجهاز للسفر ، ونادي في مملكته من كل جانب يطلب الزاد والعون.

=مالي الإسلامية ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣م ، ٦٩؛ Trimingham. J, S: Islam in West Africa, Oxford, 1975, p.66.

(١) محمد عبد العال أحمد : منسا موسى سلطان التكرور ورحلة حجه الشهيرة ، جامعة القاهرة ـ معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، ١٩٨٧، ٤٠.

(٢) محمود كعت (ابن الحاج المتوكل كعت الكرمني ، المتوفى١٠٠٢ هـ/ ١٥٩٣م) : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ، نشره هوداس ودولافوس ، باريس ـ مطبعة إنجي ، ١٩١٣م ، ٣٣.

(٣) المقريزي : التبر المسبوك ١٤٢.

وقد اختلفت المصادر في تحديد أعداد الركب الذي خرج معه فذكر ابن كثير المتوفى عام ٧٧٤هـ/١٣٧٢م أن رفقاء الرحلة بلغ عشرين ألفًا[١]، أما موكبه عند ابن خلدون المتوفى عام ٨٠٨هـ/١٤٠٦م، فقد ضم اثني عشر ألفًا[٢].وحدد كعت هذا الموكب بثمانية آلاف[٣]. وهذا العدد الذي ذكره كعت نعتقد أنه الأرجح. وقد ضم هذا العدد آلاف من العبيد لا تعين المصادر في تحديد أعدادهم. وقد دفع إلى استصحاب هذا العدد الوفير من العبيد قيامهم بخدمة السلطان وحاشيته في الطريق ومساعدة الجند في حماية الموكب إذا تعرض لاعتداء، وأخيرًا بيعهم كرقيق في أسواق مصر والحجاز بهدف الحصول على عمله نقدية تمكنهم من تغطية مصاريف رحلتهم الحجية داخل مصر والحجاز[٤]. وإذا كان الركب قد ضم أعدادًا كثيرة من الجند لتوفير الحماية له عبر الطرق الصحراوية المتجهة إلى مصر وفي رحلة العودة إلى مملكة مالي. ونستبعد رواية السعيدي أن أعداد الجند الذين صحبوا منسا موسى في رحلة الحج بلغت ستون ألف جندي[٥].

وقد أعد منسا موسى لنفقته منذ خروجه من بلاده مائة حمل من التبر في كل حمل منها ثلاثة قناطير من الذهب[٦].

---

(١) ابن كثير (عماد الدين أبي الفداء إسماعيل، المتوفي ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) : البداية والنهاية في التاريخ، القاهرة ـ مطبعة السعادة، ١٩٣٢-١٩٣٩، ١٤: ١١٢.

(٢) ابن خلدون : العبر ٦: ٤١٦.

(٣) محمود كعت : تاريخ الفتاش ٣٣.

(٤) أحمد الشكري : الإسلام والمجتمع السوداني ٢٤٥.

(٥) السعيدي (عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران المتوفى ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦) : ملوك السودان أهل سنغي وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم وذكر تنبكت ونشأتها ومن ملكها من الملوك، نشره هوداس، باريس ـ مطبعة أنجي، ١٨٩٨م، ٧.

(٦) ابن خلدون : العبر ٥: ٩٣٢؛ ابن حجر (شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني، المتوفى ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٤: ٣٨٣، بيروت ـ دار الجيل، ١٩٩٣.

خرج ركب حج منسا موسى للحج من مدينة نياني عاصمة مملكته عام ٧٢٤هـ/١٣٢٤م. وكان يوم خروجه يوافق يوم السبت ثاني عشر من إحدى الشهور الهجرية وفقًا لنصيحة بعض مشائخه حتى يعود سالمًا إلى مملكته[١]. وهذا يعني أن العرافين كان لهم مكانة سامية في بلاط منسا موسى بالرغم من انتشار الإسلام في مالي منذ منتصف القرن الخامس الهجري ولم تحدد المصادر الشهر الذي غادر منسا موسى بلاده منطلقًا لأداء فريضة الحج.

وصل منسا موسى إلى القاهرة في شهر رجب عام ٧٢٤هـ/١٣٢٤م[٢]. وحددت بعض المصادر يوم دخوله القاهرة تحديدًا دقيقًا فذكر إحداها أنه وصل إلى مصر يوم ١٥ من شهر رجب في نفس هذا العام[٣]. وحدد مصدر آخر اليوم الخميس ١٦ من شهر رجب[٤]. فالمصادر تتفق أنه وصل إلى مصر في شهر رجب وغادر مصر في شهر شوال متجهًا إلى بلاد الحرمين أي أنه أقام بمصر خمسة شهور قبل بدء رحلة الحج من مدينة القاهرة.

احتفى السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون بضيف السلطنة منسا موسى، ومن مظاهر هذا الاحتفاء أن الناصر أوفد إليه المهندار أبي العباس أحمد بن الحاكي لاستقباله والترحيب به ومرافقته والقيام بأمره فترة إقامته بالقاهرة[٥]. ومن مظاهر الاحتفاء بضيف مصر أن الناصر أقطعة قصرًا فخمًا عند القرافة الكبرى «إقطاع تمليك»[٦].

---

(١) محمود كعت: تاريخ الفتاش ٣٣.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة ٤: ٣٨٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٤: ١١٢.

(٤) المقريزي: السلوك في معرفة الملوك، ٢: ٢٥٥، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ـ دار الكتب المصرية، ١٩٧١.

(٥) العمري: مسالك الأبصار ٤: ٧١.

(٦) ابن خلدون: العبر ٥: ٩٣٢.

وامتد الاحتفاء به إلى قيام الناصر بإكرامه ومعاملته بما يليق به كحاكم مسلم، «وأجرى عليه الأنزال والإقامات الوفيرة مدة مقامه»[١].

ويقدم لنا أبو الحسن علي بن أمير حاجب والي مصر والقرافة والذي كان كثير الاجتماع بمنسا موسى ـ لما قدم مصر حاجًا، وكان هو نازلًا بالقرافة وكانت بينهم صداقة ـ صورة لهذا المنسا يظهر فيها متدينًا محافظًا على الصلاة وقراءة القرآن والذكر، كما كان محبًا للخير وأهله[٢]. ويتابع ابن أمير حاجب وصف ما كان عليه منسا موسى وركبه فيقول: إن هذا السلطان مدة مقامة بمصر قبل توجهه إلى الحجاز وبعده على نمط واحدمن العبادة والتوجه إلى الله عز وجل كأنه بين يديه، وكان هو وكل من معه على مثل هذا مع حسن الزي في الملبس والسكينة والوقار. كما كان كريمًا جوادًا كثير الصدقة. والبر خرج من بلده بمائة حمل من الذهب أنفقها في حجته على القبائل في طريقه من بلاده إلى مصر، ثم بمصر ومنها إلى بلاد الحجاز في الذهاب والإياب[٣].

وينقل العمري عن المهمندار الذي كلفه الناصر بضيافته والقيام بأمره ما كان عليه منسا موسى أثناء إقامته بمصر فيقول: «لما خرجت لملتقاه من جهة الناصر أكرمني إكرامًا بليغًا، وعاملني بأجمل الآداب، وكان لا يتحدث إلا بترجمان مع إجادة التكلم باللسان العربي»[٤].

أدى احتفاء السلطان الناصر بمنسا موسى إلى قيام الأخير بتقديم كميات كبيرة من الذهب المعدني الذي لم يصنع للخزانة السلطانية[٥]. كما أنه لم يدع أميرًا ولا

---

(١) العمري: مسالك الأبصار ٤: ٧٢؛ ابن حجر: الدرر الكامنة ٤: ٣٨٣.

(٢) المصدر السابق والجزء ٤: ٦٨، ٦٩.

(٣) المصدر السابق والجزء ٧١.

(٤) المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٥) المصدر السابق والجزء والصفحة.

رب وظيفة سلطانية إلا وصله بحمل من الذهب[١].

إن هذه العطاءات كما تذكر المصادر قدمها منسا موسى بطيبِ نفس كما ذكرت المصادر لكرمه وجوده وليس فيها تحايل من أمراء المماليك كما زعم الشكري[٢]، الذي لم يقدم لنا النص التاريخي الذي يبين قيام أمراء المماليك بالتحايل لأخذ العطاءات الذهبية من منسا موسى. إن ما ذكره في هذا الأمر ظن لا يستند إلى دليل.

حادثة اللقاء بين السلطان الناصر ومنسا موسى

طلب المهمندار من منسا موسى أن يطلع القلعة ليجتمع بالسلطان الناصر فأبى وامتنع وقال : أنا جئت لأحج لا لشيءٍ آخر ، وما أريد أخلط حجي بغيره. ويرجع رفض منسا موسى إلى أنه كان يرى أن الحضور يضر بمكانته كحاكم لدولة كبرى في السودان الغربي ، لما يضطر إليه من تقبيل الأرض أو اليد ، لذلك تعلل واعتذر كثيرًا عن اللقاء فأبلغه المهمندار أن المراسم السلطانية تتطلب صعوده إلى القلعة فوافق. حين وصل منسا موسى إلى الحضرة السلطانية طلب منه أن يقبل الأرض وتوقف وقال : كيف يجوز هذا ؟ فتحدث معه رجل عاقل كان معه فقال : أنا أسجد لله الذي خلقني وفطرني ، ثم سجد وتقدم إلى السلطان فقام له بعض قيام وأكرمه وأجلسه إلى جانبه وتحادثا حديثًا طويلًا ثم خرج منسا موسى[٣].

على أية حال نقبل رواية المهمندار عن اللقاء بين العاهلين والتي أوردها العمري لأنه شاهد عيان ، وعلى هذا نستبعد بعض الروايات التي ذكرت أنه امتنع عن

---

(١) المصدر السابق والجزء والصفحة .

(٢) الشكري : الإسلام والمجتمع السوداني ٢٤٧.

(٣) العمري : مسالك الأبصار ٤ : ٧٢/أ.

تقبيل الأرض وقال : لا أسجد لغير الله فأعفاه السلطان وقربه وأكرمه[١].

اعتبر الشكرى أن هذا اللقاء عمق الجراح ورسخ حسرة السودانيين وسلطانهم على أهل مصر[٢]. أليس هذا تحميل للنص ـ الذي أورده العمري ـ أكثر مما يحتمل ؟. لقد جاء في النص أن سجود منسا موسى في حضرة السلطان كان بنية السجود لله وعلى هذا ما هي الجراح التي عُمقت ، والحسرة التي رسخت في أذهان السودانيين وسلطانهم على أهل مصر ؟ ونتساءل أيضًا لماذا أقحم مصر في هذا الأمر وهو يعلم جيدًا أن أهل مصر ليس لهم دخل في المراسيم السلطانية التي تمت أثناء لقاء العاهلين ؟!!.

كما إن منسا موسى كان يعلم قدر مصر وحكامها المماليك فقد تقلدت مصر في هذا العصر مقعد الزعامة السياسية والحضارية في العالم الإسلامي بتصديها للصليبيين والمغول وإحياء الخلافة العباسية بالقاهرة. كيف عاين الشكرى الجراح التي عُمقت والحسرة التي رسخت ؟ لقد أوردنا النص الذي نقله العمري عن المهمندار الذي كان شاهد عيان للقاء ، والسجود ، ولا نشعر بوجود جراح أو حسرة ألمت بمنسا موسى وقومه. بل جاء في النص احتفاء السلطان الناصر به فقام له بعض قيام وأجلسه إلى جانبه وتحادثا حديثًا طويلًا[٣] ، وأن اللقاء اتسم بالود والتقدير لضيف مصر منسا موسى.

ويصب الشكري جام غضبه على ابن خلدون لأنه لم يقدم له المعطيات التي كان يبحث عنها والتي تتفق مع الخيال الذي ساقه بإهانة منسا موسى أثناء اللقاء مع السلطان الناصر فيقول : إن ابن خلدون تجاهل حادثة السجود كلية وأنه

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ٤: ٣٨٣؛ المقريزي : الذهب المسبوك ١٤٢؛ ابن كثير : البداية والنهاية ١٤: ١١٢.

(٢) الشكرى : الإسلام والمجتمع السوداني ٢٤٧.

(٣) العمري : مسالك الأبصار ٤: ٧٢.

تجاهلها متعمدًا حتى لا يحرج نفسه أمام المماليك أولياء نعمته ، واعتبر الشكري أن هذا التجاهل من ابن خلدون شهادة ضمنية تزكي رواية العمري[١].

لم يتجاهل ابن خلدون اللقاء كلية إذ ذكر أن السلطان الناصر لقيه بمجلسه وحدثه ووصله[٢]. من المحتمل أن ابن خلدون لم يجد أهمية لذكر حادثة السجود لذلك لم تستوقفه ولم يسجلها لأنه لم ير أن هذا الأمر فيه انتقاص من منسا موسى وقدره ، كما أن ابن خلدون اتفق مع رواية العمري في ودية اللقاء حين ذكر أن السلطان الناصر حدثه طويلًا ووصله بالهدايا والخلع. إن رواية العمري عن هذه الحادثة صادقة لا لبس فيها ، فاللقاء تم والسجود تم ، ولم يجد منسا موسى غضاضة في هذا الأمر لأنه كغيره من الحكام المعاصرين لسلطنة المماليك كان يعرف مكانة هذه السلطنة وقدرها في العالم الإسلامي.

كان اللقاء وديًا وبعد انتهاء اللقاء بعث إليه السلطان الناصر بالهدايا والخلع له ولأصحابه ولكل من حضر معه[٣]. واستمر السلطان الناصر في الاحتفاء بضيفه وتقديره فقام بتوفير كل سبل الراحة له مدة مقامه بالقاهرة. ولما حان وقت الخروج للحج بعث إليه الناصر بدراهم كثيرة وجمال وهجن وأزواد جمة ، وقدم له العليق في الطريق ، وطلب من أمير الركب رعايته وإكرامه واحترامه[٤]. هكذا تعددت مظاهر احتفاء السلطان الناصر بالعاهل المالي في القاهرة وجهزه بما يحتاج إليه في الطريق للحج[٥].

---

(١) الشكري : الإسلام والمجتمع السوداني ٢٤٨.

(٢) ابن خلدون : العبر ٥: ٩٣٢.

(٣) العمري : مسالك الأبصار ٤: ٧٢.

(٤) المصدر السابق والجزء والصفحة .

(٥) المصدر السابق والجزء والصفحة .

النشاط التجاري في أسواق القاهرة والفسطاط

نشطت التجارة في أسواق القاهرة بفضل الإغراءات التي منحتها هذه المدينة العظيمة والصاخبة والتي سوف تمتص الكثير من أموال السودانيين[١]، وأدت عمليات البيع والشراء والعطاءات إلى انخفاض سعر الذهب[٢]، وكان المثقال لا يقل عن خمسة وعشرين درهمًا، فحين جاء السودانيون نزلت قيمة الذهب ورخص سعره حتى وصل المثقال إلى اثنين وعشرين درهمًا، واستمر هذا الانخفاض مدة تقارب اثنتي عشرة سنة لكثرة ما جلبوه من ذهب وأنفقوه بها[٣]. وذكر المقريزي أن تدفق الذهب السوداني أدى إلى انخفاض سعر الدينار ستة دراهم[٤].

نقل العمري عن بعض تجار مصر ما حصل لهم من المكاسب والأرباح، وكان الرجل منهم يشتري القميص أو الثوب والإزار وغير ذلك بخمسة دنانير وهو لا يساوي دينارًا[٥]. يقول الشكري: «لم تكن المكاسب والأرباح ـ باعتراف التجار المصريين أنفسهم ـ صافية من الغش، ذلك أنهم استغلوا سذاجة وحسن نية السودانيين وضاعفوا ثمن السلع خمس مرات»[٦].

لقد بهرت الملابس المصرية الجميلة التي اشتهرت بها أسواق القاهرة، بالإضافة إلى الجواري الحسان من الترك والحبوش والمغنيات وغير ذلك السودانيين القادمين

---

(١) الشكري: الإسلام والمجتمع السوداني ٢٤٦.

(٢) العمري: مسالك الأبصار ٧٣.

(٣) المصدر السابق والجزء ٧٤٠.

(٤) المقريزى: الذهب المسبوك ١٤٢؛ السلوك ٢: ٢٥٥.

(٥) العمري: مسالك الأبصار ٤: ٧٣.

(٦) الشكرى: الإسلام والمجتمع السوداني ٢٤٧.

87-sar

لأداء فريضة الحج[١]. هكذا كان هناك إقبال كبير على شراء السلع المصرية من قبل الركب السوداني الذي تجاوز عدده عدة آلاف ، كان هذا الإقبال يفوق كميات السلع المعروضة للبيع أي أن الطلبيفوق العرض وهذا الأمر اقتصاديًا كافٍ لارتفاع الأسعار ، خاصة أن الشكرى يعترف بالإغراءات التي قدمتها أسواق القاهرة[٢].

لقد كانت عملية الشراء والبيع تتم برضاء من الطرفين. لقد نقل الشكري عن العمري أن ما حققه المصريون بمثابة مكاسب وأرباح من خلال عملياتهم التجارية ثم يقول : أن هذه المكاسب والأرباح ـ باعتراف التجار المصريين أنفسهم ـ لم تكن صافية من الغش[٣].

لم يعترف التجار المصريون بقيامهم بالغش كما ذكر الشكري ، بما اعترفوا بارتفاع الأسعار لتهافت السودانيين على السلع المصرية ، أي كثرة الطلب مع قلة المعروض.

لقد حاول الشكري أن يدعم وجهة نظره في قيام المصريين بالغش في عملياتهم التجارية مع السودانيين بتوظيف نص أورده العمري يبين غضب السودانيين من ارتفاع الأسعار جاء فيه «إنهم (أي السودانيين) كانوا في غاية سلامة الصدر والطمأنينة يأخذون كل قول بالقبول والصدق ، ثم ساءت ظنونهم بأهل مصر غاية الإساءة لما ظهر لهم من غشهم لهم في كل قول وفي تراجحهم المفرط عليهم في أثمان ما يباع عليهم من الأطعمة والسلع حتى أنهم لو رأوا اليوم أكبر أئمة العلم والدين وقال لهم إنه مصري امتهنوه وأساءوا به الظن لما رأوا من سوء معاملتهم لهم»[٤].

---

(١) المقريزي : الذهب المسبوك ١٤٣.

(٢) الشكرى : الإسلام والمجتمع السوداني ٢٤٦.

(٣) المرجع السابق ٢٤٧.

(٤) العمرى : مسالك الأبصار ٤ : ٧٣.

من الواضح أن العمري وهو يكتب هذا الكلام كان متأثرًا بالعقوبات التي نزلت من قبل السلطان الناصر محمد بن قلاوون عليه أثناء عمله بديوان الإنشا. لقد غضب عليه السلطان حين كان يقرأ البريد، وسبب ذلك الغضب أن السلطان الناصر أراد أن يعين علم الدين بن القطب في كتابة السر، فغضب العمري وكتب له توقيعه على كره، فأمره الناصر أن يكتب فيه زيادة فامتنع، فطلب منه مرة أخرى فقام بين يدي السلطان مغضبًا، وأمره السلطان أن يلزم بيته ثم طلب السفر إلى الشام، فأمر الناصر الدويدار فطلبه وصادر أمواله واعتقله. وذكر بعض الكتاب أنه زور توقيعًا فأمر الناصر بقطع يده فقطعت وسجن، وكان ذلك في شهر شعبان عام ٧٣٩هـ/١٣٣٨م، ثم أفرج عنه الناصر في شهر ربيع عام ٧٤٠هـ/١٣٣٩م[١].

لا يمكن إنكار الحالة النفسية السيئة التي كان عليها العمري بسبب العقوبات التي نزلت به، لذلك لا غرابة من تجاوزاته في الكلام عن المصريين بوجه عام، فإذا كان تجار مصر رفعوا أسعار السلع على السودانيين، فلماذا يمتهن هؤلاء الآخرين خاصة من أئمة العلم والدين. ويكذب هذا الإدعاء برفض أهل السودان الغربي لكل ما هو مصري. بل وامتهانه حتى لو كان من أئمة الدين: لقاء منسا موسى بالقاهرة بالفقيه المالكي المصري محمد بن أحمد بن ثعلب المدرس بالمدرسة المالكية وقاضي المذهب، والذي طلب فيه أن يؤلف له شرحًا لمختصر أبي الحسن الطليطلي في الفقه المالكي[٢]. ووافق ابن ثعلب على القيام بهذا

---

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة ١: ٣٣٢، ٣٣٣.

(٢) أبو الحسن الطليطلي فقيه وعالم مالكي كان حيًا خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجري، له مختصر مشهور انتفع به كبار علماء المالكية، انظر: القاضي عياض: (أبو الفضل عياض اليحصبي، المتوفى ٥٤٤هـ/ ١١٤٩ م): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لأعلام مذهب مالك، ٦: ١٧١، ١٧٢، الرباط ـ منشورات وزارة الأوقاف المغربية، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م؛ ابن فرحون (إبراهيم بن علي بن محمد، المتوفى ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦ م): الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق مأمون بن محيي الدين، بيروت ـ دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٦، ١٩٤، ١٩٥.

الشرح[١]. إن هذا الأمر يؤكد أن منسا موسى ومن كان معه من أئمة العلم والدين السودانيين قد التقوا بأئمة العلم والدين المصريين من أتباع المذهب المالكي. ويحاول الشكري التشكيك في اللقاء هل كان بالقاهرة في عام ٧٢٤هـ/١٣٢٤م أم أن الأمر يتعلق بمراسلة بينهم[٢]. والهدف من هذا التساؤل إلى التشكيك في لقاء منسا موسى بهذا الفقيه المصري المالكي وغيره من الفقهاء المصريين لا نجد مبرر من هجوم مؤرخ شقيق على المصريين بهذا الشكل حتى أنه يسوق اتهامات لا تستند إلى دليل فنجده يقول : برغم كثرة الذهب الذي حمله معه ركب الحج السوداني والأموال التي وفرتها عمليات بيع العبيد فإن العطاءات التي تحايل أمراء المماليك على أخذها من منسا موسى ، فضلًا عن ابتزاز تجار مصر ، استنفذت مدخرات السلطان مما اضطره بعد قضاء فرضه إلى الاقتراض من تجار مصر[٣].

نقر بأن أسواق القاهرة بهرت هؤلاء السودانيين فأقبلوا على الشراء برضاء دون ضغط أو تحايل برغم ارتفاع الأسعار لكثرة الطلب وقلة المعروض ـ كما ذكرنا من قبل ـ. نعم إن منسا موسى باعتراف المصادر منح العطايا لأمراء المماليك لكن المصادر لم تذكر أنهم تحايلوا لأخذها. كما لم تستنفذ عمليات الشراء والعطايا مدخراته ، لأن منسا موسى كان يملك الكثير من الثروة يؤكد ذلك أنه حين غادر مصر متجهًا إلى بلاد الحرمين للحج كان يملك مدخرات كبيرة جعلته يفيض على الحجيج وأهل الحرمين بالإحسان بالإضافة إلى تصدقه بمال كبير قدره السعيدي

---

(١) أحمد بابا (حمد بن محمد بن عمر اقيت التنبكتي ، المتوفى ١٠٣٦هـ/ ١٦٢٧م) : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة ، ليبيا ـ مكتبة الدعوة الإسلامية ، ١٩٨٩م ، ٣٩٥، ٣٩٦.

(٢) الشكرى : الإسلام والمجتمع السوداني ٢٥٠.

(٣) المرجع السابق ٢٤٧.

بعشرين ألف ذهبًا[١] ، كما أنفق أموالًا ضخمة في استقدام القريشيين الأربعة إلى بلاده[٢] ، كما فقد الكثير من الأموال في رحلة العودة من الحجاز نتيجة لما تعرض له من نهب وسلب على يد الأعراب[٣]. ولذلك نسأل الشكري كيف استنفذت عمليات الشراء وعطايا أمراء المماليك مدخرات منسا موسى ؟

إعانة السلطان الناصر لمنسا موسى لأداء فريضة الحج

واصل السلطان الناصر الاحتفاء بضيفه منسا موسى وإعانته على أداء فريضة الحج. ولما آن أوان الحج بعث إليه دراهم كثيرة وجمال وهجن خاص كاملات العدد لمراكبه ولأصحابه ومن حضر معه ، كما أمده بأزواد جمة ، وركز له العليق في الطريق[٤]. وطلب الناصر من أمير الحج وهو الأمير سيف الدين أيتمش بإكرامه واحترامه[٥]. هكذا خرج منسا موسى وقومه في قافلة الحج السلطاني ، ونعم برعاية أمير ركب الحج هو وقومه خاصة أن هذه القافلة كانت تحتوي على الماء والزاد والأشربة والأدوية والعقاقير والأطباء والكحالين والمجبرين والأدلاء والأئمة والمؤذنين والقاضي والشهود والأمناء ومغسل الموتى والجند[٦]. وكان الركب يتكون من عدة آلاف فقد بلغ ركب الحاج إلى مكة ـ الذي خرج من بركة الحاج ـ في سنة

---

(١) السعيدى : ملوك السودان أهل سنغي ٧.

(٢) محمود كعت : تاريخ الفتاش ٣٧.

(٣) ابن خلدون : العبر ٥: ٩٣٢.

(٤) العمري : مسالك الأبصار ٤: ٧٣.

(٥) المقريزي : الذهب المسبوك ١٤٣.

(٦) السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر، المتوفى ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، وضع حواشيه خليل منصور، ٢: ٢٦٦، بيروت ـ دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٧٢٣هـ/١٣٢٣م أي في العام الذي سبق حج منسا موسى عدة ركاب على كل ركب أمير، وكل ركب تكون من آلاف مؤلفة من الحجيج[١]، وكان ركب منسا موسى للحج يتكون من عدة آلاف وسار في سياق الحاج[٢] رحلات قافلة الحج السلطاني من بركة الحاج في طريقها إلى بلاد الحجاز يوم الثلاثاء ١٨ من شوال سنة ٧٢٤هـ/٨ أكتوبر عام ١٣٢٤[٣].

ويقدم لنا أحد شهود العيان وهو الدليل مهنا بن عبد الباقي العجرمي والذي كان في صحبة السلطان منسا موسى صورة لعطاءاته وإعانته للحجيج في بلاد الحرمين والأموال الكثيرة التي تصدق بها[٤].

بالرغم من رعاية السلطان الناصر لمنسا موسى في طريقه إلى الحج والتوصية به والطلب من أمير الركب إكرامه واحترامه نجد الشكري يقدم تفسيرًا من صنع الخيال لا يستند إلى دليل تاريخي وهو إساءة السلطان الناصر لمنسا موسى. وحتى يبرر ظنونه فنجده يتعامل مع النص الذي أورده العمري والخاص بهدايا السلطان الناصر إلى منسا موسى تلك الهدايا التي أعانت منسا موسى على الوصول إلى بلاد الحرمين لأداء فريضة الحج بتفسير غير منطقي خاصة أن النص يبين مدى حفاوة السلطان الناصر بالعاهل المالي وتقديره له. خاصة أن نص العمري ينسف الفكرة التي روج لها الشكري من إهانة منسا موسى وقومه من قبل السلطان الناصر فيقول: «قد يظن أنها التفاتة كريمة من الناصر تجاه منسا موسى، لكن الحقيقة غير ذلك إذ سبق لسلطان مالي أن قدم لخزينة الدولة المصرية أكياسًا من التبر غير هديته

---

(١) المقريزي: السلوك ٢: ٢٥٠.

(٢) المقريزي: الذهب المسبوك: ١٤٣.

(٣) محمد عبد العال أحمد: منسا موسى ٤٨.

(٤) العمري: مسالك الأبصار ٤: ٧٣.

للملك الناصر»[١].

أترك للقارئ أن يكتشف بنفسه مدى التحامل الذي لا مبرر له من الشقيق الشكري على مصر والمصريين خاصة أنه يقول أيضًا عن هدايا الناصر لمنسا موسى قبل توجهه إلى مكة لأداء الفريضة : «إن ما قام به الناصر يُعد عملية تحويلية أو ما يصطلح عليه عند أهل الاقتصاد بعملية الصبرف ليس إلا لأن أهل السودان لم يكن لديهم سكة أو عملة نقدية»[٢].

أفاض منسا موسى في الحرمين على الحجيج بصدقاته ، وبعد أن قضى فرضه اصطحب معه أربعة من القريشيين إلى بلاده للتبرك بهم[٣] ، كما صحب الشاعر والعالم الغرناطي ـ إلى مملكة مالي ـ أبي إسحاق الساحلي الذي ترك وطنه واستوطن مدينة تنبكت[٤].

ومن الحوادث المؤسفة لمنسا موسى في مكة الفتنة التي نشبت بين أتباعه وأتباع صاحب العراق شهرت فيها السيوف في المسجد الحرام ، وكان منسا موسى شديد الغضب على أتباعه يأمرهم بالرجوع عن القتال[٥].

بعد انتهاء مشاعر الحج ، آن أوان عودة قافلة الحج المصري إلى القاهرة ، لكن منسا موسى وأصحابه تأخروا عدة أيام[٦] ، ورأى البعض أن المقام طاب له في

---

(١) الشكرى : الإسلام والمجتمع السوداني ٢٥١.

(٢) المرجع السابق والصفحة .

(٣) محمود كعت : تاريخ الفتاش ٣٧.

(٤) المقري (شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني ، المتوفى ١٠٤٠هـ/١٦٣١م) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ٢: ١٩٤، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ـ دار صادر ، ١٩٦٨م .

(٥) اليافعي (محمد بن عبد الله بن أسعد على اليافعى ، المتوفى ٧٦٨ هـ/ ١٣٦٧م) . مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، ٤: ٢٠٤، وضع حواشيه خليل المنصور ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط ١، ١٩٩٧م .

(٦) المقريزي : الذهب المسبوك ١٤٣.

الحجاز فبقى في مكة ثلاثة شهور[١]. والراجح أنه تأخر في مكة عدة أيام، بسبب انشغاله بجلب الأشراف القريشيين فقد كان هناك صعوبة في إقناع القريشيين حتى وافقه أربعة منهم. خرج منسا موسى وقومه من مكة متجهين إلى القاهرة دون حماية الجنود المكلفين بحماية القافلة، وبهذا حرم نفسه وقومه من الحماية التي كانت ستتوفر لهم لو خرجوا مع قافلة الحج المصري. لذلك تعرض ركب الحج السوداني للتيه في الصحراء، وعانى هو وأصحابه من نهب البدو والأعراب وظلوا كذلك إلى أن وصلوا إلى السويس بعد أن هلك الكثير من أصحابه وجماله من البرد، ولم يصل منهم إلا الثلث[٢].

يقدم الشكري تفسيرًا لتأخر ركب منسا موسى يساير توجهاته في النيل من المصريين ولا تستند للمنطق فيقول: «نعتقد أن ما بقي في نفس السلطان منسا موسى من حادثة السجود ومن سوء معاملة أهل مصر لقومه هو الذي دفعه إلى التأخر بمكة لا لشيء إلا لكي لا يعود في ظل رعاية الركب الحجي المملوكي»[٣].

هناك عدة أسئلة تطرح نفسها ردًا على ما ذكره الشكري الأول إذا كان رفض العودة في ظل رعاية الركب الحجى المملوكي فلماذا سافر في ظل رعايته هذا الركب متجهًا إلى مكة؟ ثانيًا لماذا قبل منسا موسى هدية الناصر والتي شملت الجمال والهجن والعليق والزاد التي تحتاج إليها في طريقه؟ السؤال الأخير ماذا يعني تقديم منسا موسى ـ هدية إلى الناصر ـ بعد عودته من الحج ووصوله إلى القاهرة فقد قدم له «هدية الحجاز تبركًا»[٤].

---

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة ٣٨٣.

(٢) ابن خلدون: العبر ٥: ٩٣٢.

(٣) الشكرى: الإسلام والمجتمع السوداني ٢٥٢.

(٤) العمري: مسالك الأبصار ٤: ٧٢؛ القلقشندي: صبح الأعشي ٥: ٢٩٦.

إن تفسير الشكري لتأخر منسا موسى وقومه من نسج خياله ، فالمصادر المتاحة تؤكد الصلات الحميمة التي ربطت بين العاهل المملوكي والعاهل المالي أثناء إقامته في القاهرة وذهابه إلى الحرمين ثم عودته إلى القاهرة. فبعد العودة استقبله المهمندار الذي قام بالإشراف على إقامته وضيافته. كما رد الناصر على هدية منسا موسى وأرسل إليه ولأصحابه الخلع والأمتعة الفاخرة[١].

ويسأل الشكري أسئلة تدعو إلى الارتياب في هدفه مما يكتب فيقول متسائلًا : «كيف أمكن لأولئك الأعرابأن يتجرأوا على الركب السلطاني لمنسا موسى وهو في ضيافة الناصر ؟» ويقول أيضًا : «ما هي فائدة الأموال والمثاقيل الذهبية التي وزعها السلطان منسا موسى بسخاء على الدليل العجرمي ورفاقه ؟»[٢] إجابة السؤال الأول نجدها في مصادرنا التي أرخت لهذه الفترة والتي تشير إلى أن الأعراب كانوا يهاجمون قافلة الحج المصري في عصر المماليك ومن قبلهم في العصر الأيوبي.

لقد تعددت حوادث اعتداءات العربان في صحراء الحجاز على الحجاج القادمين من مصر فقد هاجموا عام ٧٧٧هـ/١٣٧٥م قافلة الحج المصري وقتلوا منهم طائفة[٣]. كما تعرضت القافلة الحجية للنهب أيضًا بعد ثلاث سنوات من هذا الهجوم أي في عام ٧٨٠هـ/١٣٧٨م[٤] ، واشتد خطرهم في القرن التاسع الهجري حتى نودي في عام ٨٣٥هـ/١٤٣١م بألا يسافر أحد إلى مكة خوفًا من الأعراب[٥]. كما بذل سلاطين المماليك جهودًا للقضاء على ظاهرة تعدي العربان

---

(١) العمري : مسالك الأبصار ٤: ٧٢.

(٢) الشكرى : الإسلام والمجتمع السوداني ٢٥٤.

(٣) المقريزي : السلوك ٣: ٢٥٧.

(٤) المصدر السابق والجزء والقسم ٣٤٨، ٣٤٩.

(٥) المصدر السابق ٤: ٨٦.

على قافلة الحج المصري فكانوا يضاعفون الحراسة على قوافل الحج. وتأتي شهادة الرحالة العبدري لسلاطين المماليك لتؤكد هذا الأمر فيقول : «لولا صاحب مصر وما ألهمه الله من الاعتناء بالركب ما سلك أحد طول البرية لطولها وخلائها إلا من القُطَّاع»[1].

أما إجابة السؤال الثاني الذي طرحه الشكري والخاص بعطايا منسا موسى السخية للدليل ورفاقه ، ونتساءل هل الدليل ورفاقه أدلاء لقافلة الحج المصري ومن انضم إليها من مغاربة وأندلسيين أم هم أدلاء لركب الحج المالي ؟ هل كان مطلوبًا من الدليل ورفاقه ترك القافلة الحجية المصرية التي خرجت في اليوم المحدد لها أو البقاء في مكة من أجل منسا موسى وقومه الذين تأخروا ولم يلتزموا بالميعاد المحدد لخروج قافلة الحج المصرية. لقد كان الدليل ورفاقه موظفين في سلطنة المماليك ، ووظيفتهم قيادة الحجاج الذين كانوا يسلكون الطريق البري من مدينة مكة إلى مدينة القلزم «السويس الحالية» عبر طريق صحراوي يبلغ طوله حوالي ثلاثمائة فرسخ ، وكان الحجاج يسلكون هذا الطريق في نظام وترتيب معين تدق الطبول ويعلو صوت النفير ليؤذن للناس بالرحيل أو النزول ، والدليل أمامهم ليلًا ونهارًا ، وحملة المصابيح «المشاعلية» أمام الركب وخلفه لهداية الضال ، ومعهم جمال السبيل يحلمون عليها غير القادرين على السير[2] ، لهذا يتحمل منسا موسى مسئولية ما حدث له في طريق العودة من مكة إلى القاهرة ولا يتحمله أمير ركب الحج ولا الدليل.

يستغل الشكري حادثة التيه لمنسا موسى وقومه في الصحراء وهجوم العربان ،

---

(١) البلنسي (محمد العبدري البلنسي ، المتوفى ٧٢٥هـ/١٣٢٥م) : الرحلة المغربية ، حققها وقدم لها محمد الفاسي ، الرباط ـ منشورات جامعة محمد الخامس ، بدون تاريخ ، ١٥٤.

(٢) المقريزي : السلوك ٢: ٢٥٠ـ٢٥٧؛ السيوطي : حسن المحاضرة ٢: ٢٦٦.

ويزعم أن ما حدث لمنسا موسى من دسائس البلاط المملوكي ومؤامراته ، وينسج افتراضات غير منطقية ويقول بأن العمري كان على علم بتفاصيل نكبة منسا موسى وأنه تجاهلها بسبب تأكده من علاقة هذه النكبة بدسائس البلاط المملوكي ، لأن العمري كان معاقبًا من قبل الناصر ، وكان لا يريد أن يصنع ما من شأنه أن يضاعف حنق وغضب الناصر عليه[1]. إذا كان العمري يخشى غضب السلطان الناصر فلماذا ذكر حادثة السجود التي تناولها الشكري مرارًا ليؤكد على إهانة السلطان الناصر لمنسا موسى. كما إن العمري تجرأ على المصريين وقال : إن أهل السودان كانوا في سوء ظن من المصريين وأنهم كانوا لا يثقون في المصريين حتى لو كانوا أئمة الدين.

إذن لا يوجد ما يخشاه العمري لعدم ذكر حادثة نكبة منسا موسى في صحراء الحجاز ، الراجح أن العمري لم يتحدث عن نكبة منسا موسى لأن المهمندار ـ مصدر معلومات العمري عن رحلة حج منسا موسى ـ لم يخبر العمري بهذا الأمر ليس لأنها من تدبير ودسائس البلاط المملوكي. والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا يتآمر البلاط الملوكي ضد منسا موسى وقومه ؟ إن فكرة المؤامرة هي من نسج خيال الشكري وينفي هذا الأمر كلية الحفاوة التي وجدها منسا موسى أثناء إقامته بالقاهرة وأثناء اتجاهه من القاهرة إلى مكة ، وبعد وصوله إلى القاهرة وإقامته بها حتى عودته إلى بلاده والتي سبق وأشرنا إليها بالإضافة إلى هدية منسا موسى إلى الناصر بعد عودته من أداء الفريضة.

يستمر الشكرى في تصوراته ويقول بعد عودة منسا موسى من مكة إلى القاهرة «أحس بالانقلاب في سلوك أهل مصر حكامًا وتجارًا وغيرهما من الثقات ، وشعر بتبرم الوجوه عنه»[2]. لم تذكر المصادر ما يفيد بما أحس به منسا موسى وما شعر

---

(١) الشكرى : الإسلام والمجتمع السوداني ٢٥٥.

(٢) المرجع السابق ٢٥٦.

به ، لذلك نسأل الشكري هل كنت معاصرًا لمنسا موسى بعد عودته من الحج حتى تشاهد ما أحس به وما شعر به أيضًا ؟ لقد كان المهمندار في استقباله بعد عودته من الحج وعامله بما يليق به من الاحترام والتقدير، كما تبادل منسا موسى والسلطان الناصر الهدايا التي تبين تقدير كل منهما للآخر.

يحاول الشكري دعم موقفه الذي بنى عليه تصوراته بسوء ظن منسا موسى وقومه بالمصريين والمماليك ويسأل لماذا لم يطلب منسا موسى من السلطان الناصر أن يكتب له تفويضًا يزكي شرعية حكمه في بلاد السودان ؟ ومثل هذا العمل قام به أسكيا محمد سلطان صنغي[١] الذي حج عام ٩٠٢هـ/١٤٩٥م[٢]. أجاب الشكري عن سؤاله وقال : «إن منسا موسى خبر المماليك وتعرف على أحوالهم ، كما إن المماليك كانوا شافعيين ومنسا موسى كان مالكيًا»[٣].

لم يكن منسا موسى في حاجة إلى تفويض يزكي شرعيته لأنه ينتمي إلى أسرة كيتا ، وهي أسرة مؤسسة لمملكة مالي التي قضت على دولة الصوصو الوثنية عام ٦٢٨هـ/١٢٣٠م على عكس أسكيا محمد (٨٩٨-٩٢٧هـ/١٤٩٢-١٥١٨م)

---

(١) تعد مملكة صنغي من أبرز الممالك في بلاد السودان الغربي ، وقد أسس هذه المملكة شعب الصنغي Songhay، الذي ينسب إلى قبيلة زنجية عرفت بهذا الاسم . وقد قامت إمارة الصنغي الأولى في إقليم دندي Dendi على نهر النيجر ، ويرجع تأسيس أول مملكة منظمة ظهرت في إقليم دندي موطن الصنغي إلى القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي في ظل حكم أسرة الأزواء التي نسبت إلى الملك زا الأيمن . وعرفت صنغي أوج ازدهارها وتفوقها السياسي بل والحضاري عامة خلال الفترة ما بين عامي (٨٦٩-١٠٠٠هـ/ ١٤٦٤-١٥٩١م) وهي الفترة التي خضعت فيها لحكم سني علي أبرز سلاطين أسرة آل سني ، ثم الأسكيا محمد وخلفائه من أسرة الأساكي إلى أن تعرضت هذه المملكة للغزو على يد الجيش الدولة السعدية عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م ، انظر : السعيدي : ملوك السودان ، ٤٤ حسين مراد : مملكة صنغاي ، مجلة قراءات أفريقية ، العدد الثالث عشر ، رجب - رمضان ١٤٣٣هـ/ يوليو - سبتمبر ٢٠١٢م، ١٣، ١٦، ١٨.

(٢) الشكري : الإسلام والمجتمع السوداني ٢٥٢.

(٣) المرجع السابق ٢٥٣.

الذي اغتصب الحكم من أسرة سنيّ علي (٨٦٩-٨٩٨هـ/١٤٦٤-١٤٩٣م) التي كانت تحكم مملكة صنغي[١]، فأسكيا محمد كان يبحث عن شرعية لحكمه في صنغي لا تتوافر له في مملكته. أما القول بأن المماليك شافعية ومنسا موسى مالكيًا، وهذا ما دفعه إلى رفض التفويض تأويل غريب لأن الشافعية والمالكية سنة، كما كان أسكيا محمد مالكيًا، والمماليك شافعية، وحصل منهم على تفويض يزكي شرعيته.

بعد أن وصل منسا موسى إلى القاهرة قادمًا من مكة نفذت أمواله لكثرة عطاياه وهداياه في مصر والحجاز، وما أنفقه لجلب القريشيين بالإضافة إلى تعرضه للسلب والنهب في صحراء الحجاز فاحتاج إلى الاقتراض من تجار مصر فاستدان منهم على ذمته بمكاسب كبيرة وافرة[٢]. ويذكر ابن خلدون من أقرضه من تجار مصر فيقول: بنو الكويك الذين أقرضوه خمسين ألف دينار، كما باع لهم القصر الذي أقطعه له السلطان الناصر في القرافة[٣].

لما توجه منسا موسى إلى بلاده سار معه وكيل ابن الكويك ليسترد ما اقترضه منهم، لكن هذا الوكيل توفي قبل الوصول إلى بلاد السودان الغربي؛ لذلك توجه ابن الكويك بنفسه وبصحبته ابنه فخر الدين، فلما وصلا تنكبت نزلا في ضيافة أبي إسحاق الساحلي، وتوفي ابن الكويك وهو في ضيافة الساحلي، ونفى ابنه أنه مات مسمومًا من طعام قدم له لأن ابنه ذكر أنه أكل من نفس

---

(١) محمود كعت: تاريخ الفتاش ٤٣، ٤٤، ٥٣، ٥٤؛ السعيدي: ملوك السودان ٦٧؛ إبراهيم طرخان: دراسات في تاريخ أفريقية الإسلامية قبل عهد الاستعمار إمبراطورية صنغي الإسلامية، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، المملكة العربية السعودية، المجلد الثامن، ١٩٨١، ١٥.

(٢) العمري: مسالك الأبصار ٤: ٧١؛ المقريزي: الذهب المسبوك ١٤٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٥: ٢٩٦.

(٣) ابن خلدون: العبر ٥: ٩٣٢.

الطعام مع أبيه[١]، ويذكر ابن بطوطة أن ابن الكويك تابع طريقه إلى عاصمة مالي، والتقى مع منسا موسى وأخذ منه ما اقترضه من أبيه[٢]؛ لذلك لا عبرة لما ذكره ابن خلدون من أن منسا موسى كان قد توفي قبل استيفاء الدين لذلك لم يظفروا منه بشيء[٣]، لأن ابن بطوطة قد أقام فترة في دولة مالي في عهد منسا سليمان (٧٤٢-٧٦١هـ/١٣٤١-١٣٦٠م)[٤]، إذ وصل إلى مالي في سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٢م، وسمع بهذا الأمر لذلك سجله، أما ابن خلدون فهو بعيد زمنيًا عن زيارة ابن الكويك وابنه إلى مالي. كما إن منسا موسى توفى في عام ٧٣٧هـ/١٣٣٧م أي بعد اثنى عشر سنة من عودته إلى بلاده قادمًا من مكة وهي فترة طويلة كافية لسداد الدين.

يستكمل الشكري تأويلاته التي لا تستند إلى أدلة مصدرية، ويأخذ برواية ابن خلدون بموت تجار مصر قبل استيفاء الدين؛ لأن هذه الرواية تفي بالغرض المطلوب وتستجيب لرغبته والمزاعم التي نسجها حول إهانة منسا موسى وقومه في مصر، ومؤامرات البلاط المملوكي ضدهم فكان رد الفعل الطبيعي عند منسا موسى الانتقام من هؤلاء التجار المصريين فيقول: «إن صدمة منسا موسى من أهل مصر خاصة حكامهم وتجارهم تركت في جسده جراحًا عميقة لم يستطع الزمن تضميدها»، ثم يقول: من ثمة نفهم إقدام منسا موسى على قتل التجار المصريين الذين جاءوا إلى بلاده يطلبون أموالهم التي اقترضها منهم[٥].

---

(١) ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي، المتوفى ٧٧٩هـ/١٣٧٧م): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق طلال حرب، بيروت ـ دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٩٩٢، ٧٠١.

(٢) المصدر السابق والصفحة.

(٣) ابن خلدون: العبر ٥: ٩٣٢.

(٤) ابن بطوطة: الرحلة ٧٠١.

(٥) الشكرى: الإسلام والمجتمع السوداني ٢٥٨.

نتساءل كيف تصور الشكري أن منسا موسى قتل التجار المصريين ولم يستوف دينه ؟ وخاصة أنه قال : إن منسا موسى كان عميق التأثر لما شاهده في الحرمين من أحوال ربانية ، ولما مر عليه وهو في ضيافة الرحمن من لحظات قدسية[١] ، حتى إنه قرر الزهد في الدنيا وترك الملك لابنه ، والرحيل إلى مكة والإقامة بها مجاورًا[٢]. كما أكد شهود العيان الذين التقى بهم في القاهرة تقواه وروعه وشدة تدينه ومواظبته على الصلاة وقراءة القرآن والذكر[٣].

وتتضح الآثار الروحية للحج من خلال قيامه بتشييد بعض المساجد بعد عودته من مكة فبنى مسجد تنبكت ومسجد مدينة جاو[٤] ، كما اشتهر منسا موسى بالصلاح والعدل[٥] ، كما سعى إلى دعم الفقه المالكي في بلاده من أجل ذلك قام بشراء مجموعة من الكتب في فقه المالكية أثناء إقامته في مصر[٦].

بعد هذا العرض لسيرة منسا موسى هل من الممكن أن يكون قاتلًا ويتهرب من سداد الدين كما زعم الشكري.

---

(١) المرجع السابق والصفحة .

(٢) العمري : مسالك الأبصار ٤: ٦٩.

(٣) المصدر السابق ٤: ٦٩، ٧٠.

(٤) السعيدي : ملوك السودان ٧.

(٥) المصدر السابق والصفحة .

(٦) المقريزي : الذهب المسبوك ١٤٣.

خاتمـة

بعد هذه الدراسة التي تهدف إلي وضع رحلة حج منسا موسي في إطار أحداثها التاريخية الصحيحة، وبعيدا عن التأويلات التي لا تستند إلي أصول تاريخية، وبعيدا عن الاجتهاد العقلي مع توافر النصوص التاريخية، خاصة أن الاجتهاد في وجود النص التاريخي الواضح يؤدي إلي تحميل النصوص التاريخية أثناء تحليلها أكثر مما تحتمل مما يؤدي إلي الوقوع في الخطأ. كما لا يجوز للباحث في التاريخ أثناء الاجتهاد أن يجعل الافتراض والتكهن حقيقة ما لم تتوافر لديه الأدلة والبراهين الكافية[1].

لكل ذلك كانت تأويلات الشكري بعيدة عن الواقع التاريخي لرحلة حج منسا موسي كما بينت هذه الدراسة.

---

(١) حسن عثمان: منهج البحث التاريخي ١٧٤، ١٧٥.